غرناطة

لا عينَ غرناطةٌ ولا أثرُ ... دُلتِ فيهات تنفعُ الذكرُ
أهكذا النصرُ بعدَ رفعتهِ ... إلى حضيضِ الهوانِ ينحدرُ
تالله والدهرِ دارَ دورتهُ ... هل مستتبٌ لأمةٍ فتَرُ
مابوكِ لمّا عدَتْ محجمةً ... فيكِ جيادَ الاعاربُ العُشُرُ
كلُّ الحضاراتِ في بدايتها ... بدوٌ وفي أوجِ عزّها حضَرُ
تُورقُ بين الرماحِ غرستها ... وفي ظلالِ السيوفِ تزدهرُ
لله بدوٌ أوورت عزائمهم ... نارٌ بقلبِ الصحراءِ تستعرُ
ربيعةٌ زوّدتهم أسلاً ... وأوفدتهم خلفَ العلا مضرُ
يا سائلَ البدوِ عن حضارتهم ... ينبيكَ عنها العوّانُ والحجرُ
فاستنبرِ أشبيليا وقرطبةً ... تجلكَ تلكَ المعاهدُ الزهرُ
لهم حديثٌ لدى طليطلةٍ ... وعندَ غرناطةٍ لهم خبرُ

* * *

تالله قصرَ الحمراءِ لا برحتْ ... ترويكَ منّا المدامعُ الحُمرُ
أنتَ على الشرقِ عبرةٌ بقيتْ ... في مقلةِ الغربِ كلُّها عبرُ
كلُّ فخارٍ لديكَ مدّخرٌ ... صنعَ الأُلى خلّدوكَ واندثروا
أبوابكَ الزهرُ من فتوحهمِ ... خُطّتْ عليها الآياتُ والسُّورُ
حروفُ مجدٍ في رونقكَ اعتنقتْ ... كأنهنّ الرماحُ تشتجرُ
من فنهمِ رفهوكَ في بُردٍ ... بها تتيهُ السقوفُ والجدرُ

فسيناه بالوشي حالية يكاد يشتفُّ لونها البصرُ
لم يخلعوها عليك من خزفٍ كلاَّ ولا شابَ أصلها مَدَرُ
لكنها من قلوبهم قطعٌ ومن بقايا سيوفهم كسرُ

* * *

ياساحة الأُسدِ ليس من أُسُدٍ فيكِ نيحمي حياضك الذُّعُرُ
أصنامُها هذه فأين هُمُ أُسدٌ إذا دِيسَ ذيلهنَّ زأروا
أيُّ عويلٍ في القصر منبعث والليلُ فوق القباب معتكرُ
ما تلك جنٌّ في الدار عازفةٌ ولا شكاةٌ يشُّها الشجرُ
لكنَّ في ساحها صراخ دمٍ أبرُّ أبنائهِ به كفروا
ما زال يبلو بالشرِّ بعضهمُ بعضاً إلى أن عراهمُ خورُ
ما نفعُ باعٍ تطولُ حاملها إن كان فيها عن غيرهِ قصرُ
جسرٌ إلى الغرب مدُّهُ نفرٌ وهدُّهُ عن جهالةٍ نفرُ
كذاك تنهارُ كلُّ مملكةٍ ينوء بالتاج عرشها النخرُ

* * *

اراكِ غرناطةً مروَّعةً تُسعى إليكِ المدائن الأُخَرُ
لآلئٌ ينفرطنَّ واحدةً من بعد أُخرى والعقد ينتثرُ
حتى إذا ما وقفتِ خائرةً وحدكِ لا نبلةٌ ولا وَتَرُ
هويتِ والمجدُ قبل مصرعهِ ودَّع قوماً من حولك اندحروا
ذلك مجدٌ حضنتهِ زمناً واغتالهُ فوق حضنكِ القدرُ
فكنتِ غرناطةٌ على فمهِ آخرَ ما قال وهو يحتضرُ ...

سان باونو شفيق معلوف